

# الفصل الثاني

مسيرة الرحلة بين التراث العربي والأدب الجزائري

1- مفهوم الرحلة:

1.1 - لغة :

جاء في لسان العرب لابن منظور "الرحلة : بمعنى اسم للارتحال "والترحل والارتحال :الانتقال ، وهو الرحلة ...يقال دنت رحلتنا ورحل فلان وارتحل ، وترحل ...والرحلة بالضم الوجه الذي تأخذ فيه وتريده"<sup>62</sup> .

ولا يختلف معه بطرس البستاني في معجمه "محيط المحيط " عندما يقول : "رحل عن البلد يرحل رحلا . ورحيلا وترحالا " شخص وسار"<sup>63</sup> "ومن هذه الأفعال يأتي اسم الرحلة فيعرفها بقوله : " الرحلة النوع من الرحيل ، يقال رحل فلان رحلة من لا يعود،وعند المولدين قصة يكتبها المسافر عما جرى له وما رأى في سفره "<sup>64</sup> إذن فالرحلة هي الانتقال ، وأضاف بطرس البستاني ، مفهوما آخر يتقاطع كثيرا مع المفهوم الاصطلاحي للرحلة ، عندما أوضح بأنها قصة يكتبها المسافر لينقل ما جرى له ، وما شاهده في رحلته تلك وهذا ما نجده عند معظم من عرف الرحلة اصطلاحا .

## 1. 2 - اصطلاحا :

الرحلة " سلوك أنساني حضاري يأتي ثماره النافعة على الفرد وعلى الجماعة فليس الشخص بعد الرحلة هو نفسه قبلها ،وليست الجماعة بعد الرحلة هي ما كانت عليه قبلها "<sup>65</sup>،فالرحلة العربية مثلا كانت لها ثمار انعكست بإيجابية على الحضارة العربية الإسلامية ،وكأوضح مثال على ذلك الأمة العربية قبل الفتح ليست هي نفسها بعد الفتح الإسلامي ، فالرحلة بعد مجيء الإسلام تعد نقطة تحول في الأمة جمعاء وفي جميع المجالات الثقافية والاجتماعية والاستكشافية ،وذلك من خلال احتكاكهم بالشعوب الأخرى ،ومعرفة عاداتهم ، وتقاليدهم ، ومختلف فنونهم فالرحلة هي "اليد التي تمتد لتقرب شعوبا تتاعت عن شعوب ، وأقواما إلى أقوام تفصل بينها البحار القفار "<sup>66</sup> .

<sup>62</sup> - ابن منظور ،لسان العرب .م،دار الجيل ،بيروت لبنان،ص.1142.

<sup>63</sup> - بطرس البستاني ،محيط المحيط.م2،مكتبة لبنان،بيروت،ص.227.

<sup>64</sup> - المرجع نفسه،ص.228.

<sup>65</sup> - د. فؤاد قنديل، أدب الرحلة في التراث العربي ،مكتبة الدار العربية للكتاب ،ص.22.

<sup>66</sup> - المصدر نفسه .

ويعرفها عبد الله حمادي بقوله : " إن الرحلة سواء كانت برية أو بحرية أو كانت من إنجاز فردي أو جماعي تعتبر محاولة لاختراق حاجز المسافات وإسقاط الفاصل الجغرافي بين المكان والزمان "67، فقد عرفها انطلاقا من أحد أهم أغراضها وهو الاختراق ومحاولة معرفة الآخر لتقريب المسافات مهما بعدت ، وقد تكون دوافع الرحلة حاجة ذاتية إشباع رغبة النفس في حب الإطلاع ، وكشف أستار المجهول . والرحلة العربية على غرار الرحلة الأجنبية تعددت أغراضها وتتنوع تماشيا مع العصور وتطورها .

## 2-أغراض ودوافع الرحلة العربية :

- 1-دوافع دينية : كالارتحال إلى الحج ، أو الدعوة إلى الله ، أو زيارة المقابر .
- 2- دوافع علمية أو تعليمية : بغرض الاستزادة من العلم ،في منطقة من العالم اشتهرت بعلم من العلوم أو بشتى منها ، فكانوا يقطعون مسافات طويلة لتحقيق هذا الغرض ، وكذلك رحلات البحوث العلمية ،والكشوف الجغرافية .
- 3- دوافع سياسية :كالوفود والسفارات التي يبعث بها الملوك والحكام إلى ملوك وحكام دول أخرى ، لمناقشة شؤون الحرب والسلام ،أو تمهيدا لفتح أو غزو .
- 4- دوافع سياحية وثقافية :وهي تأتي من نداء النفس في المغامرة وحب التطلع ، ومعرفة المسالك والممالك ، للتمتع بعجائب وغرائب الكون .
- 5-دوافع اقتصادية :حيث كان الإنسان منذ أقدم العصور وهو يرتحل وينتقل من مكان إلى مكان بحثا عن الكلا سواء له أو لماشيته ، ويحترف أيضا التجارة وتبادل السلع أو لفتح أسواق جديدة لمنتجات محلية ، أو لجلب سلع تتوافر في بلاد أخرى وتندر في بلاد المسافر "وقد يكون هربا من الغلاء وسعيا وراء الرخص واليسر والوفرة أو العمل"68 .
- 6-دوافع صحية :كالسفر للعلاج أو الاستشفاء ،كالفر إلى المناطق الريفية وقد يكون هربا من مرض أو وباء يسود المنطقة .
- 7- دوافع أخرى :كالسخط على الأحوال ، وضيق العيش أو الهروب من عقوبة .

67- د. عبد الله حمادي ،أصوات من الأدب الجزائري الحديث ،دار البعث، قسنطينة ،ص.108.

68 - د،فؤاد قنديل ، مصدر سبق ذكره ،ص. 20.

### 3- الرحلة العربية قبل مجيء الإسلام :

إذا كان التنقل ديدن الإنسان في أغلب بقاع الأرض منذ خلق الله آدم ، حيث أن " السبب الوحيد لشقاء الإنسان هو انه لا يعرف كيف يستقر هادئاً في حجرته"<sup>69</sup> وإذا جئنا إلى نظرية " أرنولد فان جانب ( arnold van gennep ) التي نشرها في كتابه "شعائر المرور" أو "شعائر الانتقال" ،والذي نشر في فرنسا سنة 1909 ،فإننا نجد يتحدث في هذه النظرية عن الانتقال الفطري الذي يمر به الإنسان في مراحل وجوده ، تحت عنوان " رحلة الحياة " ، حيث كل مرحلة يمر بها الإنسان تتميز بسميزات معينة ، وكي ينتقل الفرد من مرحلة إلى أخرى يجد نفسه مرغماً للقيام ببعض الطقوس التي تسهل عليه الانفصال على المرحلة التي هو فيها ، والتهيؤ إلى استقبال المرحلة المقبلة .

من هنا نرى أن الرحلة سنة كونية ، فكل المخلوقات تشترك في هذه المراحل وهي مراحل رحلة الحياة ، فنجد رحلة ما قبل الولادة ،وهي رحلة من العدم إلى الوجود ،ورحلة الولادة ينتقل فيها المخلوق من الرحم إلى الدنيا ، ونلتقي بعدها برحلة العمر ،وهو الانتقال من عمر إلى عمر ،ثم تأتي المحطة الأخيرة وهي رحلة الوفاة والدفن ،رحلة من الدنيا إلى رحم الأرض ،ويوضح لنا القرآن الكريم أكثر هذه المراحل التي يمر بها الإنسان من أول مرحلة إلى نهايتها فيقول عز وجل : "يا أيُّها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإننا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً"<sup>70</sup> .

ففي هذه الآية الكريمة يوضح لنا الله عز وجل الأطوار التي يمر بها الإنسان وهي عبارة عن الانتقال من مرحلة إلى أخرى، وكل مرحلة لها خصائصها ومميزاتها "فالحياة كلها رحلة أو عملية حركة وتغيير"<sup>71</sup>

لقد عرف الإنسان بالتنقل سواء طوعاً أو كرها منذ الأزل ، ومنذ خلق الله -عز وجل- أبو البشر آدم- عليه السلام- الذي نسبت إليه أول رحلة في تاريخ الإنسانية وهي رحلته من الجنة

<sup>69</sup> - عالم الفكر ، المجلد 13 ، العدد4 ،وزارة الإعلام الكويتية، مارس 1983 ،ص.4.

<sup>70</sup> - قرآن كريم ،سورة الحج ، الآية . 5.

<sup>71</sup> - عالم الفكر ، مرجع سبق ذكره ، ص.6.

إلى الأرض ، فلقد "سافر سفره الأول من الجنة إلى الأرض من البقاء إلى الفناء ، ومن الراحة إلى العناء..سافر من الأنهار والأشجار والظلال إلى الصحاري والوهاد والجبال" <sup>72</sup>.

ثم نلتقي بعد ذلك مع أقدم أسفار البشرية وهو سفر إبراهيم -عليه السلام- وهو من أول المسافرين الذين تنقلوا في البلدان وزار عدة مناطق وأصقاع " فقد سافر من أرض الكلدانيين (بابل) إلى أرض الكنعانيين وهي بلاد بيت المقدس وسافر إلى مصر ، ثم عاد إلى بيت المقدس ، ثم سافر بعد ذلك إلى مكة" <sup>73</sup>. وقد عرف الإنسان العربي التنقل منذ آلاف السنين "بحكم طبيعة الحياة التي ترتبط أول ما ترتبط بالماء والكأ ،فضلا عن حركته الدائبة للرعي والتجارة ،ناهيك هن هوايته الأثيرة وهي الصيد" <sup>74</sup>.

وتذكر كتب التاريخ أن العرب كانت لهم تجارة نشطة في معظم بقاع العالم قبل مجيء الإسلام ، وخاصة مع شعوب إفريقيا وكانت هذه المناطق الأسواق التجارية الرئيسة التي مونت العربي بالثراء كما كانت للعرب رحلات تجارية كبرى خاصة مع الشام واليمن والعراق ، غير أن هذه الرحلات ضاعت ولم تدون ولم يصل إلينا منها إلا القليل ،وهو ما نجده متناثرا في بعض القصائد الشعرية وكتب اللغة ،وعن بعض هذه الرحلات يذكر لنا القرآن الكريم رحلات قريش المعروفة ، فيقول . عز وجل . : " لإيلاف قريش (1) إيلافهم رحلة الشتاء والصيف (2) فليعبدوا رب هذا البيت (3) الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف(4)" <sup>75</sup>.

فيشير القرآن الكريم إلى رحلة قريش التي كانت قبل مجيء الإسلام حيث كانوا يرتحلون في العام مرتين ، أحدهما في الشتاء والأخرى في الصيف،والهدف منهما هو البحث عن الكأ والاستقرار والأمان .

ومن المعلوم أن معظم الرحلات التي قام بها العرب كانت معظمها حيوية ، خاصة في مجال التجارة ، ولكنها مهما بلغت من الازدهار فلا مجال لمقارنتها بالرحلة بعد مجيء الإسلام ،لأن العالم المعمور آنذاك اتخذ شكلا آخر للعيش ، وتبنى طابعا متطورا من الحياة ،وتطلع إلى مستقبل مزدهر ومتحضر في كل الاتجاهات وفي جميع المجالات .

#### **4-الرحلة العربية بمجيء الإسلام :**

<sup>72</sup> -د.ناصر بن مسفر الزهراني، أنيس المسافر وسلوة الحاضر ،ط1، الرياض، 1461هـ، ص.11.

<sup>73</sup> - المرجع نفسه، ص.40.

<sup>74</sup> - د. فؤاد قنديل ،مصدر سبق ذكره ،ص.25.

<sup>75</sup> - قرآن كريم، سورة قريش.

رأينا كيف أن العرب تحكّموا في التجارة العالمية ، وعرفوا المسالك وصالوا وجالوا في عدة ممالك ، إلا أن رحلاتهم تلك تفتقد لعدة معاني ، وتتقصها العديد من السلوكات الحضارية ، وبمجيء الإسلام - المعجزة الكبرى وكلمة الله إلى البشر كافة - أعطى نكهة جديدة ومتميزة للرحلات العربية وأضاف إليها الكثير من المعاني ، وتعددت أغراضها ، وتتنوع أهدافها ، وتطورت غاياتها حيث نجد في مواضع كثيرة من القرآن الكريم آيات تدعو إلى السفر والترحال والضرب في الأرض للتفكير والتدبر وأخذ العبر ، وقراءة معاني الوحدانية في دفتر الكون ، والتأمل في آيات البارئ وحكمة الخالق ، وبديع صنع المبدع ، يقول تعالى : "قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة إن الله على كل شيء قدير" <sup>76</sup>.

كذلك دعا البشرية إلى اكتساب المعيشة والبحث عن أسباب الرزق الحلال يقول تعالى : "هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور" <sup>77</sup>. ضف إلى ذلك أن القرآن الكريم حذره من الوقوع في مثل ما وقعت فيه الأمم الغابرة ، فأهلكهم الله بذنوبهم ، لذلك دعاهم إلى أخذ العبر من أحوال الأمم السابقة ، فإن الدول والبشر مهما عاشوا فإن مصيرهم إلى الزوال والفناء ، مهما اكتسبوا من القوة والبطش والحضارة ، فيقول في محكم التنزيل : "أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق" <sup>78</sup>.

كما نبههم إلى بعض الوسائل التي تسهل عليهم التنقل والترحال فتتكرر كلمة (الفلك) في كثير من المواضع في القرآن الكريم ، يقول . عز وجل . : "الله الذي خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار" <sup>79</sup>.

ونظرا لأن القرآن الكريم معجزة الإسلام الكبرى وفيه من المنافع للبشرية الكثير ، فقد توجه الله . عز وجل . بدعوات صريحة إلى المسلمين للسعي في الأرض والسير في البر وركوب الفلك ، وخوض البحار للانتفاع - في البداية - بالخيرات ثم بعد ذلك تدريبا على تحمل مشاق السفر

<sup>76</sup> - قرآن كريم ، سورة العنكبوت ، الآية 20.

<sup>77</sup> - قرآن كريم ، سورة الملك ، الآية 15.

<sup>78</sup> - قرآن كريم ، سورة غافر ، الآية 21.

<sup>79</sup> - قرآن كريم ، سورة إبراهيم ، الآية 32.

والحل والترحال ، وقطع المسافات ، والطواف بالقفار والأمصار ، فجاءت الفتوحات الإسلامية التي غزت العالم شرقا وغربا حاملة إليهم أعظم رسالة ربانية إلى البشرية كافة ، وكان نشاط الفتوحات ، وتوسع الدولة الإسلامية -التي حققت نجاحا سياسيا كبيرا - حافظا على غزو ميادين جديدة تعزز النصر السياسي والحربي ، وتفتح مجالات معرفية تحقق المجد العقلي والحضاري ، وتؤسس لبناء دولة متقدمة ومتطورة ، فخلال قرن واحد فقط تمكنوا من تشكيل أكبر إمبراطورية عرفها التاريخ دون منازع "الأمر الذي يؤكد الخبرة البرية والبحرية والجغرافية للعرب وغيرهم من الشعوب المجاورة التي أسلمت" <sup>80</sup> ، وبذلك استطاعوا أن يتحكموا في ناصية العالم وتفرغوا لأمر أخرى مهمة فكانت البداية بالترجمة ، التي نشطت نشاطا واسعا وذلك بتشجيع من الخلفاء والحكام العرب هذا النشاط الذي فتح عقول العرب على علوم الأمم الأخرى في كل المجالات ومنها الرحلات التي كانت من أهم مصدر تطور الأمم والشعوب ، فتحمس الكثيرون من العرب إلى السفر ، وانطلقت الرحلات سواء للتجارة ، أو لطلب العلم أو الحج ، هذا الأخير الذي كان أحد أركان الإسلام الخمس يعظمه المسلمون ، ويجتهدون في تأديته استجابة لنداء الله -عز وجل - حيث يقول سبحانه : "وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئا وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود ، وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق" <sup>81</sup>.

فقد جعل الله -عز وجل- الحج فريضة على كل مسلم ما استطاع إلى ذلك سبيلا فحاولت جموع المسلمين تلبية هذه الدعوة الكريمة ، وبذلوا في سبيلها كل غال ورخيص ، يقطعون القار ، ويتحملون المصاعب ، ويركبون الدروب الطويلة في اتجاه مكة المكرمة والمدينة المنورة .

### 5-مراحل الرحلة العربية ومسيرتها:

بعد أن تمكن العرب المسلمين من فتح معظم أصقاع العالم وأصبحوا يتطلعون إلى ما وراء الجزيرة العربية والاحتكاك بالشعوب الأخرى ، بل تمكن منهم الشوق وحب الإطلاع إلى معرفة مختلف الأوطان ما فتح منها وما لم يفتح قرب أو بعد ، وأصبحت الرحلة فنا أدبيا له قواعده وأصوله بعدما كانت في الجاهلية مجرد ممارسة أو بحثا عن كلاً أو استقرا ، وقبل أن تصل إلى هذا الارتقاء "وصارت فنا عربيا أصيلا في النثر العربي بسماته التاريخية والجغرافية

<sup>80</sup> - د. فؤاد قنديل ، مصدر سبق ذكره، ص.34.

<sup>81</sup> - قرآن كريم ، سورة الحج ، الآيتان 26, 27.

واهتمامه بحياة الناس ، وأنماط عيشهم وبمضمونه الفكري والاجتماعي وأسلوبه الأدبي المتميز غالبا عما سواه<sup>82</sup> مرت بمرحلتين مهمتين في مسيرتها ، ولكل مرحلة مميزاتها وأعلامها .

### 5.1- المرحلة الأولى :

وهي المرحلة الأعظم في مسار هذا الجنس الأدبي ،حيث سادت الحضارة الإسلامية وامتدت أطرافها إلى أصقاع العالم ، وبذلك عكست الأعمال الأدبية -خاصة في مجال الرحلة - تطور هذه الحضارة وازدهارها في كل المجالات العلمية والعملية والسياسية والاجتماعية وتبدأ هذه المرحلة منذ القرن الثالث الهجري وتمتد إلى غاية القرن الثامن الهجري (9-14) ميلادي.

كان معظم رحالة القرن الثالث الهجري من اللغويين ، ففي أواخر القرن الثاني الهجري وأوائل القرن الثالث برز المؤرخ المعروف "هشام الكلبي" (ت حوالي 206هـ) وهو من بين النماذج الفذة الخبيرة بالجزيرة العربية ، وتنسب إليه عدة مؤلفات أهمها : "كتاب الأقاليم" و "البلدان الكبير" و "البلدان الصغير" و "أنساب البلدان" ، يأتي بعده صاحب كتاب "الأنواء" وهو "الأصمعي" (ت 261هـ) ، ثم تلاه تلميذه "سعران بن المبارك" الذي وضع كتاب "الأرضين والمياه والجبال والبحار" ثم نلتقي بالجاحظ (ت 255هـ) وهو كبير علماء الأدب واللغة واضع رسالة تسمى "التبصرة بالتجارة" ، وأورد المسعودي أنه صنف مؤلفا عنوانه "كتاب الأمصار وعجائب البلدان" وأخيرا نصادف تلميذ الفيلسوف الكندي ورفيقه في الدرب " أحمد بن محمد الطيب السرخسي" (ت 286هـ) الذي له كتاب اسمه " المسالك والممالك" ، وربما يكون أول مكن استخدم هذا الاسم الذي تكرر كثيرا بعد ذلك<sup>83</sup> ثم تأتي كوكبة من الرحالين الجغرافيين ، يتصدرهم "محمد بن موسى المنجم" (ت 259هـ) الذي قام برحلتين الأولى قادته إلى آسيا الصغرى ، والثانية كانت مع "سلام الترجمان" لزيارة سد يأجوج ومأجوج ، ثم نلتقي بالرحالة الذين مثلوا البداية الحقيقية لعلم البلدان ، وفي مقدمتهم "ابن خردادبة" و "البلاذري" و "اليعقوبي" و "الجهاني" .

<sup>82</sup> - د. عمر بن قينة ، مصدر سبق ذكره ، ص. 11.

<sup>83</sup> - د. فؤاد قنديل ، مصدر سبق ذكره ، ص. 71.

أما القرن الرابع الهجري فقد شهد ظهور رحالة كبار أخذوا التجربة عن سابقهم فكانت رحلاتهم أكثر نضجا ،ومن أهمهم "المسعودي" (ت346هـ) صاحب الكتاب المعروف "مروج الذهب ومعادن الجوهر" والذي يعتبر "من أهم المصادر التي يعتمدها المؤرخون في سرد الحوادث والأخبار"<sup>84</sup> و"ابن فضلان" الذي زار بلاد البلغار ونهر الفولجا ، وأنجبت رحلته هذه رسالة غنية بمادة أثنوجرافية على درجة عالية من الطرافة والتنوع ، وفي هذا القرن أيضا برز الرحالة الشاعر " أبو زيد البلخي " ، فقد شهد هذا القرن ثراء كبيرا من الناحية الأدبية والجغرافية والعلمية ، وعرف أيضا ازدهار الحضارة العربية ، حيث شهد زيادة عدد الرحالة بشكل واسع ، ونشطت الرحلة بكل أنواعها وفي جميع المجالات الاستطلاعية والجغرافية والعلمية ، فظهرت خرائط للبلاد الإسلامية لأول مرة ، وبعض المعاجم التي تضم أسماء الأقطار والأماكن المختلفة ، ووصول الرحالة إلى آفاق بعيدة خاصة الأصقاع الشمالية من العالم مثل حوض نهر الفولجا وبلاد الروس والبلغار وغيرها .

وشهد أدب الرحلة في القرن الخامس الهجري افتتاح صفحة جديدة من صفحات كتبه ، حيث يحتل هذه الصفحة بعض رحالة وجغرافي المغرب الإسلامي ، فبعد أن كان العالم مقتصرًا على رحالة المشرق ، فقد دخلوه المغاربة في هذا القرن ، وإن كانت رحلاتهم محتشمة ، ومنهم "أحمد بن عمر العذري" الذي ارتحل إلى الشرق وعاش في مكة تسعة أعوام ، وخلف لنا كتابا سماه "نظام المرجان في المسالك والممالك" إلى أن نصل إلى رحالة الأندلس الكبير في هذا القرن وهو "أبو عبيد عبد الله البكري" (ت487هـ) وله كتابان هما "المسالك والممالك" و "معجم ما استعجم من أسماء الأماكن والبقاع" ، وقبل هؤلاء الرحالة كانت هناك رحلات مهمة قام بها الطبيب البغدادي "ابن بطلان" عام (404هـ) والتي قادته إلى الشام ومصر وإنطاكية والقسطنطينية .

أما القرن السادس الهجري فيكاد ينافس القرن الرابع الهجري من حيث أهميته والإنجازات التي قام بها رحالته ، فقد تميز بظهور أول مؤلف يكتب عليه اسم الرحلة وهو كتاب "ترتيب الرحلة" للرحالة الأندلسي "أبو بكر العربي" (ت584هـ) وهو الذي "يعتبر أول من وضع أساس أدب الرحلات بالصورة الفنية المأمولة ، وهو يقدم لنا مادة ضخمة ، تحفل بالمعلومات الثقافية

<sup>84</sup> - المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر . ط1، دار الأندلس ، بيروت ، 1965، ص.8.

والاجتماعية عن البلاد التي طاف بها<sup>84</sup>، وقد سبقه رحالة آخر جسور وهو "أبو حامد الغرناطي الأندلسي" عام 508هـ وزار العالم الإسلامي خاصة المنطقة الشمالية حيث قضى فيها أكثر من ربع قرن وصنف كتابين هما "تحفة الألباب ونخبة الإعجاب" و "المغرب عن بعض عجائب المغرب" ثم يعلوه بعده نجم كبير سطع في سماء الرحلة وهو صاحب كتاب "نزهة المشتاق في اختراق الأفاق" وهو الجغرافي الكبير الذي كان له سبق في وضع الخرائط للعالم إنه "الشريف الأندلسي" (ت560هـ).

واكتملت المعالم الأساسية لأدب الرحلة العربي على يد الرحالة الأديب "ابن جبير" (ت614هـ) حيث حرص على تدوين مذكراته ومشاهداته يوماً بيوم متجنباً ذكر الغرائب والعجائب... واعتمد الصدق في الرواية منهجاً<sup>85</sup>، ولا يمكن أن نغلق صفحة هذا القرن دون ذكر الأمير المجاهد "أسامة بن منقذ" (ت584هـ) الذي قضى كل عمره في السفر والحرب والصيد . إذن فقد تميز هذا القرن -القرن السادس الهجري- بقوة الرحالة وأهمية الآثار التي خلفوها والمناهج التي اتبعوها في جمع المادة وتدوين المشاهدات .

ولعل أهم ما انبثق عن القرن السابع الهجري صدور كتاب "معجم البلدان" لمؤلفه "ياقوت الحموي" (ت626هـ) الذي يحتوي على مادة ضخمة تحمل قدراً كبيراً من الثراء والقيمة عن كافة أقطار العالم الإسلامي ، بفضل ما يتضمنه من معارف جغرافية وأدبية وتاريخية وفولكلورية ، ثم يأتي بعده الرحالة "عبد اللطيف البغدادي" (ت629هـ) صاحب كتاب "الإفاداة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر" ، ولا نغفل ذكر الرحالة "يوسف بن يعقوب الدمشقي" (ت569هـ) الذي طوف بالجزيرة العربية وعدن ، ومضى إلى جزر المحيط الهندي ، وخلف لنا كتابه الموسوم بـ "تاريخ المستبصر" ثم نلتقي بالرحالة "زكريا القزويني" (ت682هـ) صاحب كتاب "عجائب المخلوقات" وكتابه هذا القرن ذا أثر في صياغة بعض الأعمال القصصية المهمة ، ونصل مع نهاية هذا القرن إلى الرحالة الأديب الفقيه "محمد العبدري" صاحب كتاب "الرحلة المغربية" الذي اشتمل على أدق وصف لبلاد الشمال الإفريقي .

<sup>84</sup> - المصدر نفسه، ص.75.

<sup>85</sup> - المصدر نفسه، ص.76.

لقد تميزت كتب القرن الثامن الهجري بالمبالغة في القص وسرد العجائب ورواية الأساطير والغرائب ، ومن هذه الكتب كتاب "تخبة الدهر في عجائب البر والبحر" لـ "شمس الدين دمشقي" (ت727هـ) وقد زين هذا القرن بموسوعات مهمة خدمت أدب الرحلات مثل "مسالك الأبصار في ممالك الأمصار" لـ "أبي الفضل العمري" و"نهاية الأرب في فنون الأدب" لـ "النوري" ، على أن كل ما أنجزه هذا القرن يتضاءل إزاء ظهور الرحالة العالمي صاحب "تحفة النظر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار" ذروة أدب الرحلة العربي وسنامه ، أشهر من التقى بالملوك ، وجال في البلاد وقطع أكثر من مائة وعشرين ألف كيلو متر إنه الرحالة المعروف "ابن بطوطة" "أبو عبد الله اللوتي الطنجي" ، ومن أهم الرحلات أيضا رحلة العالم السياسي والمؤرخ "عبد الرحمان بن خلدون" (ت808هـ) صاحب كتاب "التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا" و"نلتقي بعد ذلك بالرحالة "الحسن بن محمد الوزان" (ت957هـ) المعروف باسم "ليون الإفريقي".

وتجدر بنا الإشارة إلى بعض الرحلات المهمة مثل: رحلات "عبد الباسط بن خليل الظاهري المصري: و "أحمد المقرئ" و "ومحمد التاريخي: وغيرهم .

ولما كانت الرحلة العربية وآدابها إحدى مزايا الحضارة العربية التي عرفت خلال القرنين (9-10هـ)(15-16م) مشكلات سياسية واقتصادية ، وتدهور في الحياة الثقافية والحضارية ، وسقوط الأندلس واكتشاف العالم الجديد ، كل هذا ساهم في نكوص الحضارة العربية والإسلامية وبذلك تقلصت الرحلة العربية نسبيا.

## 5.2- المرحلة الثانية:

بعد الركود الذي عرفته الرحلة العربية خاصة في القرن السادس عشر للميلاد عادت للانتعاش من جديد ، بداية من القرن الثامن عشر للميلاد وتحديدا بعد الحملة الفرنسية على مصر ، وساهمت في ذلك عوامل كثيرة ، أهمها شيوع الطباعة التي قامت بدور مهم في نشر التراث العربي ، وبعض الآثار المهمة ومنها الرحلة .

واستأنفت منطقة المغرب العربي الإسلامي دورها في فن الرحلة بأعلام مثل "العياشي" وهو "أبو سالم عبد الله بن محمد بن أبي بكر" (1628-1679م) المعروف برحلته "ماء الموائد"

وبنتهي القرن الثامن عشر للميلاد بالجزائريين "ابن حمادوش" و "الورتلاني" (1713-1779م) صاحب "نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار".

وبدخول القرن التاسع عشر للميلاد بدأ مجال الرحلة يتسع ، كما تتخذ لها وجهة متميزة نحو أوروبا ، والاحتكاك بشعوبها والاجتهاد في معرفة خصائصها الاجتماعية والثقافية والعلمية "ينهلون العلم من ينابيعها ن ويحضرون المؤتمرات فيها ، ويسافرون للتنزه في ربوعها فبدأ بذلك أدب الرحلة يأخذ طريقه إلى التفتح والنمو ، وكان للعرب منذ القرن التاسع عشر حتى اليوم فيض من الأدب الرحلي"<sup>86</sup> ،ومن أساطين هذا القرن نجد "رفاعة الطهطاوي" و"شهاب الدين الألوسي" ، و"سليمان البستاني" و"محمد حسين هيكل" وغيرهم ، وسنحاول تسليط الضوء على نماذج من الرحالة العرب في العصور الحديثة تتمثل هذه النماذج في شخصيات مهمة لم يتكلم عنها في هذا المجال إلا القليل من الباحثين ، وهذه الشخصيات هي:

### 5. 2. 1- أحمد فارس الشدياق ورحلته:

التي أنجبت كتابين مهمين هما (كشف المخبا عن فنون أوروبا) "تكلم في هذا الكتاب عن أوروبا ووصف مسالكها وأهم ما تتميز به من عادات وتقاليده وطرائق عيشها"<sup>87</sup> ، والثاني كتاب (الواسطة في معرفة أحوال مالطة) ، و"وصف فيه أحمد فارس جزيرة مالطة من الناحية التاريخية والجغرافية والمدنية ، وتكلم عن عادات أهلها وأخلاقهم ولغاتهم"<sup>88</sup>

### 5. 2. 2- محمد عمر التونسي ورحلته:

التي نتج عنها كتابا مهما وشيقا وهو "تشحيد الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان" دامت هذه الرحلة ثماني سنوات ونصف السنة " رحل فيها محمد عمر التونسي (1789-1857م) من القاهرة إلى دارفور وبلاد السودان "<sup>89</sup> مكنته هذه الرحلة من الاتصال بالسكان ، ومعرفة عوائدهم وتقاليدهم ودرس لغاتهم وحياتهم ولهجاتهم.

<sup>86</sup> - أحمد أبو سعد ، أدب الرحلات . دار الشرق الجديد، ط1 ، بيروت، 1961 ، ص.231 .

<sup>87</sup> - المصدر نفسه .

<sup>88</sup> - المصدر نفسه.

<sup>89</sup> -المصدر نفسه، ص.239.

## 5. 2. 3- أمين الريحاني ورحلته:

إن الرحلات التي قام بها "أمين الريحاني" كانت في ربوع البلاد العربية ، ذلك أنه عاش في أمريكا ولم يكن يعرف عن العرب وتاريخهم إلا القليل ، فبدأ رحلته هذه بحثاً عن الثقافة العربية والمعرفة المبادئ الإسلامية فكان "مدفوعاً إليها أول أمره بمجرد رغبته في السياحة وفي الاطلاع والتفهم ثم انقلب إلى داعية يبشر بالأفكار القومية ويدعو إلى تحقيق الوحدة العربية"<sup>90</sup> .

بدأت رحلاته الأولى من أمريكا إلى شبه الجزيرة العربية ماراً بمصر ، ثم زار كلا من الحجاز ، واليمن ونجد ، والبحرين والعراق والكويت وقد أثمرت رحلته هذه كتابه "ملوك العرب" وكانت له كتب أخرى نتجت عن زيارته لبنان والمغرب الأقصى منها "قلب العراق" "قلب لبنان" "المغرب الأقصى" .

## 6- أهمية الرحلة في التراث العربي:

أدت الرحلة دوراً كبيراً ومهماً في تنمية المجتمع العربي وتطوره من معظم النواحي ، وفي أغلب المجالات خاصة منها العلمية والأدبية فإذا تصفحنا آثار الرحلة العربية نجد ذات قيمتين بارزتين وأساسيتين ، أولهما قيمة علمية ، وثانيهما قيمة أدبية .

فأما القيمة العلمية : "فهي تكمن في احتواء معظم هذه الرحلات على كثير من المعارف والمدونات التي تمت إلى الجغرافية والتاريخ بأوثق الصلات"<sup>91</sup> ذلك أن الرحالة عندما يتجول في الأصقاع والبقاع فإنه يكتب ما يشاهده وما يعاينه مرة مستغرباً ، ومرة معجباً لأن حياة البشرية وما يحيط بها من ظروف تختلف من منطقة إلى أخرى ثم يقدم "صوراً وتقاريراً وافية عن الأحوال الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والعمرانية للعرب ومن جاورها من شعوب آسيا وإفريقيا وشطر من أمم أوروبا"<sup>92</sup> فيستغل الرحالة رحلته تلك لذكر كل التفاصيل عن البلاد التي يزورها فيجمع مادة أنثوجرافية \*\*\*\*\* غنية "مما لاتزال تعتبر حتى اليوم مرجعاً أساسياً في

<sup>90</sup> - المصدر نفسه، ص.247.

<sup>91</sup> - المصدر نفسه، ص. 5.

<sup>92</sup> - المصدر نفسه.

\*\*\*\*\* - الأنتوجرافيا كمصطلح " كلمة معربة تعني الدراسة الوصفية لأسلوب الحياة ومجموعة التقاليد، والعادات والقيم ، والفنون والمأثورات الشعبية لدى جماعة معينة أو مجتمع معين خلال فترة زمنية محددة " . أنظر : د. عمر بن قينة ، اتجاهات الرحالين الجزائريين في الرحلة العربية الحديثة ، مصدر سبق ذكره ، ص.11.

دراسة وصف بعض البلدان الجغرافي والعمراني والاجتماعي والاقتصادي<sup>93</sup> ولا يفوت الرحالة ذكر المعالم الأثرية ، ووصف الممالك والمسالك والأصقاع والأقطار ودرس العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية وغيرها مما يكتبه الرحالة ويدونه تدوين المشاهد المتأمل في غالب الأحيان من جراء اتصاله المباشر بالطبيعة وبالناس وحياتهم ، وما ينقله الرحالة يعتبر مادة علمية هامة يعود إليها الجغرافيون والمؤرخون وعلماء الاجتماع والاقتصاد والآداب ، فمنهم من غلب على كتاباته الطابع الديني ، ومنهم من اهتم بالعلم ورجاله ، ومنهم من تحدث عن المدن ووصف المسالك والممالك ، ولكن أعمالهم جميعا أصبحت لا غنى عنها للمؤرخين والجغرافيين والأدباء وعلماء الاجتماع<sup>94</sup> .

وأما القيمة الأدبية: "فهي تتجلى في كون كثير مما أورده هؤلاء الرحالون في مذكراتهم يمكن أن يأخذ سبيله إلى عالم الأدب والخيال"<sup>95</sup> ويمكن أن نعتبر ما دونه الرحالة مما شاهدوه أنموذجا من أرقى النماذج وأروعها في الوصف الفني الحي المتميز الراقى لم نزل نفتقده في أدبنا وحتى الحديث منه ، "وهو الانصراف عن اللهو والعبث اللفظي ... والإيثار للتعبير السهل المستقيم الناضج بغنى التجربة ، وصدق اللهجة الشخصية مما لا نجده متوافرا عند البلغاء والأدباء المحترفين ونجده بقوة عند علماء وفقهاء الدين والمؤرخين وهؤلاء الكتاب الرحالين"<sup>96</sup> .

كما أن هذه الرحلات تكتب بأسلوب أدبي غني بالمحسنات البلاغية ، وجمال اللفظ وحسن التعبير ، وارتقاء الوصف وبلوغه حدا كبيرا من الدقة ، كما أن الرحالة يستعين -أحيانا- بأسلوب قصصي سلس ، وهذا ما يجعل الرحلات تدخل ضمن فنون الأدب العربي دون منازع. ويمكن أن نضيف قيمة أخرى لا تقل أهمية عن القيمتين السابقتين ، وهي القيمة التعليمية ، ذلك أن هذا النوع من الكتب يسهم إسهاما كبيرا في تثقيف القارئ ، وإثراء فكره وتأملاته عن الآخرين ، حيث أن كتاب الرحلات يصورون بعض ملامح حضارة العصر الذي قاموا برحلاتهم فيه ، وينقلون ثقافة البلدان التي ذهبوا إليها ، وأحوال الشعوب التي اختلطوا بها ، وبذلك تعد مثل هذه الكتب أكثر المدارس تثقيفا للإنسان وتزويده بثقافات متنوعة وثرية.

<sup>93</sup> - أحمد أبو سعد ، مصدر سبق ذكره ، ص.5.

<sup>94</sup> - د. أبو القاسم سعد الله ، تجارب في الأدب والرحلة ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، ص.203.

<sup>95</sup> - د.أحمد أبو سعد ، مصدر سبق ذكره ، ص.6.

<sup>96</sup> - المصدر نفسه .

كل هذا جعل الرحلة تحتل مكانة محترمة في تراثنا العربي ، وقدمت إسهامات بالغة الأهمية في كل العلوم والمعارف ، الأمر الذي كان له أثره في تحرير صفحات عديدة من صفحات الحضارة العربية التي تألفت على مساحة شاسعة من العالم من شرق الصين إلى غرب أوروبا ، ومن روسيا شمالا حتى أواسط إفريقيا جنوبا"<sup>97</sup> .

## 7- الرحلة العربية وعلاقتها بالأدب:

قبل أن نحدد العلاقة التي تربط الرحلة بالأدب ، يجدر بنا أن نشير إلى ماهية الأدب ، هذا الأمر الذي يبدو في غاية الصعوبة ، ذلك أن الأدب فن ، والفن تتحكم فيه عدة مرجعيات ، حيث طرحت إشكالية تعريف الأدب على الساحة الفنية منذ القديم ، واختلف الدارسون في تحديد ملهيته ، فنجد المدرسة التاريخية التي تعطي الطابع التقريري للأدب وتجرده من بعض فنياته ، وتعتبر هذه المدرسة أن الأدب يمكن أن يكون مصدرا تاريخيا نرجع إليه في كثير من المناسبات والوقائع التاريخية ، فجرته بذلك من إنسانيته وفنياته ، وغير بعيد عن هذه المدرسة نجد المدرسة الاجتماعية ، التي تقيد الأدب بضوابط اجتماعية لا يمكن الخروج عنها ، وغيرها من المدارس الأخرى كالمدرسة اللغوية والبلاغية والمدرسة النفسية ، حيث أن الأدب عند أصحاب هذه الأخيرة "تعبير عن نفس قائله ، والأديب ذات مستقلة وإنتاجه الفني يأتي من الوحي أو الخيال أو الإلهام المنبعث من الواقع... وأن الأدب هو الذي يدلنا على نفس الأديب وعلى المجتمع الذي يعيش فيه من جميع نواحيه السياسية والاقتصادية والاجتماعية"<sup>98</sup> وفي حين أن الأدب يجمع بين كل هذه المدارس ، حيث يمكن للمؤرخ أن يتخذ مصدرا ، واللغوي مرجعا ، والفني لوحة ، والنفسي علاجا .

وقد حاول "أحمد رضا حوحو" أن يقدم تعريفا للأدب فقال : " هو لغة حية تخاطب بها أرواح الغير ، هو التفكير الصادق عن شعورنا وخلجات أنفسنا من صور الحياة ، وبهذا وحده

<sup>97</sup> - د. فؤاد قنديل ، مصدر سبق ذكره ، ص.13.

<sup>98</sup> - د. محمد حامد الحضيري ، ماهية الأدب ومهامه في النقد الأدبي الحديث ، رابطة الأدب الحديث ، ط1، القاهرة ، 1992، ص.15.

يكون مرآة أمة ، و إلا فهو هراء أصنام أمة ، فهذا الأدب الذي نريده حرا زاخرا بالقصص والروايات والنقد والشعر"<sup>99</sup>.

إذا انطلقنا من هذا التعريف الأخير للأدب ، فإننا نجده في علاقة حميمة مع الرحلة ، ذلك أن الرحالين من أهم ما يقومون به هو نقل صور الحياة التي تختلف من مجتمع إلى آخر ، فيكون أدبهم بذلك مرآة تعكس حياة البشر وما يحكمها من عادات وتقاليد ، فقد "سجلوا رحلاتهم ودونوا ملاحظاتهم ولم يكن تسجيلا تقريريا مباشرا ، بل كانوا يصوغون رحلاتهم ومشاهداتهم صياغة أدبية جميلة"<sup>100</sup> ، هذه الصياغة الأدبية التي يحكمها السرد أحد خصائص القصة التي ثار وما زال يثور جدل حول نشأتها ، ونقصد بذلك القصة العربية وجذورها الأولى ، فنجد من المفكرين من يذهب إلى أن القصة العربية لم تر النور إلى بعد القرن العشرين ويؤكد حدثها ، بل هناك من يذهب إلى أبعد من ذلك ، إلى أن القصة العربية ليست لها جذور عربية سابقة ، ولم تبذر إلا بعد اتصالنا بالغرب وتأثرنا بأدابه فقلدنا القصة الغربية في فنياتها إلا أن العرب طبعوها بخصائص تتلاءم والبيئة العربية ، ذلك أن القصة سمتها البارزة فيها هي انكبابها على الواقع والأخذ منه ، وهو موضوعها الرئيس ومادتها الخصبة.

لكن الذي يغوص في أعماق التراث العربي يرى أن الفن القصصي ضارب بجذوره وموغلا في القدم "ومتصل الحلقات منذ أقدم العصور ، وهو متنوع في أساليبه ومضامينه ، فهناك قصص "الأمثال" التي تصور جوانب الحياة في العصر الجاهلي وفي صدر الإسلام ، وقد جمع بعضه الميداني والزمخشري... وهناك القصص العاطفي الذي بدأ مع العصر الأموي مثل قصة "قيس وليلى" و "جميل وبثينة" ... ومقامات الهمذاني والحريري"<sup>101</sup> .

وإذا كان بعض المفكرين -وبالأخص العرب- منهم يذهبون إلى أن القص العربي عديم الجذور ، وأن هذا الفن وفد إلينا من الغرب ، إلا أن هناك من المفكرين الذين خاضوا البحث وغاصوا في أعماقه وتجاوزوا الأمواج المتلاطمة ، فكانت زبدة بحثهم أن أدب الرحلة قدم مادة خصبة للقص العربي ، وأن العرب قد خاضوا هذا الفن بداية من القرن التاسع الميلادي ويذهبون إلى أبعد من ذلك فيقولون أن هناك من الأدباء الغربيين أنفسهم تأثروا بالقص

<sup>99</sup> - البصائر ، سلسلة 2، العدد 211 (29 ديسمبر 1952) ، ص.3.

<sup>100</sup> - د. ناصر بن مسفر الزهراني ، مرجع سبق ذكره ، ص.348.

<sup>101</sup> - د. فواد قنديل ، مصدر سبق ذكره ، ص.12.

العربي" وهذا ماذهب إليه المؤرخون عربا وأعاجم من أن فن القصة الأوروبي هو الذي نهل من القصص العربي وتأثر به ، وإن أروع قصص الأدب الغربي التي تعتر بها أوروبا مثل "الكوميديا الإلهية" لدانتي...واعمل كثيرة لفولتير وغوته وستندال وغيرهم تشهد على تأثرها بقصص عربية شهيرة" <sup>102</sup>.

كما أن للرحلة علاقة بفن المقامات والتي هي : "أحاديث أدبية لغوية يلقيها راوية من الرواة في جماعة من الناس بقالب قصصي يقصد فيه إلى التسلية والتشويق" <sup>103</sup> وكان أول من أبدع في هذا الفن "بديع الزمان الهمذاني" ، حيث تتناول مقاماته "قصة قصيرة تدور أغلب أحداثها حول الكدية والاحتيال لجلب الرزق ، ولها راو أو بطل وتشتمل على نكتة أدبية تستهوي السامع أو القارئ" <sup>104</sup>.

وهناك من يتخذ الرحلة سببا للكسب ، وقد يكون غرض هذه الرحلة غرضا أدبيا كتلك المغامرات التي يقوم بها البطل في فن المقامة التي تنتهي في معظمها إلى جواز حيلته على الناس وبلوغه ما يطمع فيه من كسب <sup>105</sup> ، ذلك البطل الذي يتميز بتنقلاته ومغامراته ، ومما يتسم به البطل "أنه صعلوك جوال متسول، ماكر مستهتر يحتال للحصول على المال ممن يخدمهم" <sup>106</sup> ، وإلى جانب البطل نجد الراوي الذي ينقل لنا أخبار هذه المغامرات " وفي كل مقامة من المقامات نجد "الراوي" يمر ببلد من البلاد في بعض أسفاره فيلقى ذلك الأديب المتصعلك "البطل" آخذا في حيلة من حيله" <sup>107</sup>.

ومن أمثلة ذلك المقامات الوهرانية التي ألفها "الشيخ ركن الدين محمد بن محمد بن محرز الوهراني" ، الذي جعل من نفسه الراوي والبطل في معظم مقاماته "يتحدث عن يعرف من الأدباء والحكام وسير تاريخ الأمم والملوك...وهو الذي يقوم بالرحلات والتنقل بقصد مدح الخلفاء والولاة والتعرف إلى البلدان" <sup>108</sup> ، كتلك المقامة التي يصف فيها بغداد المحروسة وسفرته

<sup>102</sup> - المصدر نفسه.

<sup>103</sup> - د. موسى سليمان ، الأدب القصصي عند العرب . دار الكتاب ، ط5، لبنان، 1983، ص.338.

<sup>104</sup> - د. يوسف بقاعي ، المقامات ، شرح مقامات الحريري ، دار الكتاب اللبناني، بيروت ، ص.6.

<sup>105</sup> - سيد حازم النساج ، رحلة التراث العربي . ص.118.

<sup>106</sup> - المرجع نفسه .

<sup>107</sup> - المرجع نفسه ، ص.119.

<sup>108</sup> - المرجع نفسه ، ص. 130.

إليها كما حاول" محمد المولحي بن إبراهيم المولحي "عن طريق البطل والراوي" أن يصف الحياة المصرية الحديثة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر"<sup>109</sup>.

## 8- الجزائر وأدب الرحلات :

أدت الرحلة دورا مهما في التراث العربي ,وأُسست بذلك أدبا فنيا عربيا أصيلا له خصائصه ومميزاته ,واحتلت الرحلة الأدبية حيزا معتبرا في التراث العربي الإسلامي على غرار النشاطات الأدبية الأخرى "فقد تميزت الحضارة العربية الإسلامية بهذا النوع من الرحلات الأدبية الذي أضيف على رصيدها الحضاري نوعا جديدا من الخيال الإبداعي الممتع الذي يتميز فيه الواقعي والسحري في تناغم"<sup>110</sup>.

ولما كان المغرب العربي بعيدا عن مراكز القرار والأماكن المقدسة ,أوجب على سكانه ربط علاقات الصلة بتلك البقاع , ضف إلى ذلك رغبة المغاربة الملحة في معرفة كل جديد الحضارة المركزية ,وخاصة في مراكزها الرئيسية كمكة المكرمة ,والمدينة المنورة ,وبعدهم عن مراكز البحث العلمي كدمشق وبغداد والقاهرة من أجل التحصيل العلمي وملازمة شيوخ العلم الكبار كل هذا أوجب عليهم التنقل والارتحال ,فنتج عن كل ذلك شكل من أشكال الأدب الخلاق عرف فيما بعد باسم "أدب الرحلات" أي "ذلك النثر الأدبي الذي يتخذ من الرحلة موضوعا ,أو بمعنى آخر الرحلة عندما تكتب في شكل أدبي نثري مميز وفي لغل خاصة ,ومن خلال تصور بناء فني له ملامحه وسماته المستقلة"<sup>111</sup>, وفي هذا المجال صار للمغرب العربي نصيبا وافرا , "هذا الأدب الذي يعتبر لبنة جديدة في المسرح المعماري للحضارة العربية الإسلامية , نجد المغاربة يضربون فيه بقسط وافر إن لم يكن لهم قصب السبق فيه"<sup>112</sup>.

<sup>109</sup> - المرجع نفسه ، ص. 135.

<sup>110</sup> - إتحاد الكتاب الشهداء ، الأدياء الشهداء . منشورات المتحف الوطني للمجاهد .ص.40.

<sup>111</sup> -سيد حامد النساج ،مرجع سبق ذكره ، ص. 203.

<sup>112</sup> - إتحاد الكتب الجزائريين ، مرجع سبق ذكره ،ص.40.

وفي خضم هذا الهوس الإبداعي شكلت الجزائر إحدى المحطات البارزة والمهمة في أدب الرحلات ، وساهمت بشكل كبير في هذا النوع من الإنجاز الأدبي الرفيع المتميز بالمغامرة والمجازفة والمعروف بأدب الرحلات ، وكانت بعض رحلات الجزائريين ثلبيية لنداء الحج ، وبعضها نتيجة لطلب العلم ، وبذلك أسهموا " مساهمة واضحة في كتابة رحلات ولاسيما خلال القرن 18م (12هـ)<sup>113</sup>، رغم أن إنتاجهم كان قليلا بالقياس إلى كتاب الرحلات المغاربية ، ومن أشهر الجزائريين الذين كانت رحلاتهم باتجاه المغرب العربي نجد الرحالة الجزائري " عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري " الذي عاش في القرن (12هـ) والتي كانت بغرض طلب العلم والتجارة انتقل فيها من مدينة الجزائر إلى تطوان ومكناس وفاس " وقد وصف ابن حمادوش الحياة العلمية وجوانب من الحياة السياسية والاقتصادية في الغرب الذي زاره مرتين على الأقل ، وسجل ملاحظاته وأحكامه في مذكراته التي تعرف أيضا برحلة "لسان المقال"<sup>114</sup> ونظرا لتعدد الرحالين الجزائريين واختلاف اتجاهاتهم وتنوع أغراضهم تعددت بذلك أشكال الرحلة الجزائرية فنجد منها السياسية والسياحية والدينية والدعوية وغيرها .

## 9- أشكال الرحلة الجزائرية:

إذا بحثنا في أدب الرحلة في الجزائر ، نجده متعدد الأغراض والغايات، ولذلك تعددت أشكال التعبير فيه وتنوعت ، فقد تعددت القضايا في الرحلة الواحدة ، مما يصعب علينا تصنيفها وتبويبها ، غير أنه قد تغطي غاية معينة على باقي الغايات فتطبع الرحلة بطابع خاص وتميزها بمميزات معينة ومن خلالها تسمى الرحلة وتبويب .

### 9.1- الرحلة السياسية :

لقد اتخذت هذه الرحلة أهمية كبيرة في أدب الرحلات الجزائري خاص في العصر الحديث ، ذلك لأن الجزائر عرفت فترات سياسية مهمة في تاريخها سواء على المستوى الداخلي أو على المستوى الخارجي ، وهذا النوع من الرحلات يتميز بنوع من الخطورة نوعا ما ، حيث يتلقى فيه

<sup>113</sup> -د. أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي . ج2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، ص.395.

<sup>114</sup> - المرجع نفسه، ص. 399.

الرحالة عدة صعوبات ذلك لأنه يمثل شعبا بأكمله ،ويخضع لضوابط تنظيمية مقررة من الدولة لا يمكنه الخروج عنها ، وهذه الخطورة لمسنها خاصة عند الرحالة الذين قاموا بواجباتهم الوطنية أثناء الاحتلال الفرنسي ففي ذلك الوقت "باتت الرحلة السياسية تضحية وطنية وهما وطنيا أيضا مقيما في نفس الرحالة يشغله حتى عن همومه الخاصة ومتاعبه الشخصية" <sup>115</sup> ، ويمكن أن نذكر في هذا المجال عدة رحلات من بينها رحلة "محمود بوزوزو" إلى باريس التي كانت تحت عنوان " من وحي البرلمان الفرنسي" فقد زار فرنسا في شهر يوليو سنة 1939، ويبدأ في هذه الرحلة بوصف البرلمان الفرنسي وهو فارغ ،ويصف بناءه العظيم الذي يوحى بالوقار والعدالة "قرأيت قصرا عظيم البناء فسيح الأرجاء ، جميل الأنحاء يوحى بالعظمة والجلال" <sup>116</sup> ثم بعد ذلك ينبره بقاعة المجلس النيابي المعدة للوزراء والنواب فعندما رأى تلك المهابة قال في نفسه"هذا أثر من آثار الديمقراطية الحقة...هنا تشرح آلام الشعب وتبسط آماله... هنا يقرر مصير ملايين من الناس ، ليت لنا برلمانا مثل هذا نبسط فيه شؤوننا ونقرر مصيرنا وننظم أحوالنا" <sup>117</sup> وفي شهر أوت من السنة نفسها دخل البرلمان وهو مملوء وليس فارغا فكانت الجلسات معقدة فيه لمناقشة عدة قضايا ومنها القضية الجزائرية ،فاشدت شوق بوزوزو لمعرفة النتائج المنتظرة من هذه الجلسة الموقرة والمنعقدة في ذلك البرلمان العظيم "دخلت البرلمان رغبة في الاستماع إلى رجاله ..وشهود بعض الصور من الصراع بين الحق والباطل في ميدان تتقارع فيه حجج مبطلين أقوياء مع حجج محقين ضعفاء فيكون النصر حليف الباطل على مرأى ومسمع من قوم يدعون إيثار الحق على الباطل" <sup>118</sup> فأراد أن يعرف مصير القضية الجزائرية والتي كان مصيرها معروفا لأن الفصل فيها كان موكلا إلى حكومة هي الخصم والحكم في آن واحد هذه القضية التي كانت معلقة بالجو السياسي السائد آنذاك في باريس ،حيث كان مكفهرها "وذلك أن رئيس الوزارة الفرنسية المسيو "بول رامادي" كان في مأزق حرج فيما يخص القانون الانتخابي ... وكان المسيو "رامادي"بعد أن حصل على موافقة الحزب

115- عمر بن قينة ، أدب الرحلة في النثر الجزائري ، رسالة دكتوراه، معهد الأدب العربي ، جامعة الجزائر ، 1992،ص.330.

116- البصائر ، سلسلة 2، العدد13 ، الصادر بتاريخ 10نوفمبر 1974، ص.3.

117- المصدر نفسه.

118- المصدر نفسه.

الاشتراكي...يريد أن يحصل على الحزب الجمهوري الشعبي ... فلم يجد إلى ذلك سبيلا إلا التضحية بالقضية الجزائرية "119 فوق الاتفاق على ذلك ونجحت المساومة.

هكذا تنتهي رحلة "محمود بوزوزو" بخيبة أمل ولكنه في الوقت نفسه زاد وعيه وعرف أن فرنسا الغازية لا يمكنها أن تكون في يوم من الأيام صديقة وتتصف القضية الجزائرية ، وعرف أن الديمقراطية الفرنسية ما هي إلا مظاهر وبناءات.

ويمكن أن ندرج ضمن الرحلة السياسية أيضا رحلة "الفضيل الورتلاني" التي قادت إلى المشرق العربي ، فقد أوفد إلى سوريا ولبنان من أمر من جبهة الدفاع الذي كان أمير سرها "لإثارة الرأي العام فيها عن قضية المغرب العربي بواسطة المحاضرات والصحافة والاتصال برجال الحكم والنواب والزعماء والهيئات"120.

ويمكن أن ندرج ضمن هذا النوع من الرحلات "الرحلة الصحفية" وذلك لتقاربهما وتقاطعهما في كثير من الخصائص "فبقدر ما هي ذات مهمة صحفية خالصة أولها طابع صحفي ، هي ذات صلة أيضا بالسياسة بشكل ما قد تكثر هذه الصلة وقد تقل"121 ونذكر ضمن هذا المجال رحلة "عبد الحميد بن باديس" بعنوان "جولة صحفية" نشرها في جريدة الشهاب الجزء السابع ، وتضمنها الجزء الرابع من آثاره.

## 9. 2- الرحلة الثقافية والدينية الاجتماعية:

من ضمن الرحلات التي يمكن أن تندرج ضمن هذا النوع ،رحلة "العربي التبسي" إلى تونس إذ الغاية منها كانت "لربط العلاقات وتنميتها بين الجامعة الزيتونة العامرة والمعهد الباديسي بقسنطينة"122.

فقد ذهب "العربي التبسي" إلى تونس في فصل الخريف وقد استقبله الشيخ الفاضل "ابن عاشور"مع نخبة من أهل العلم والأدب والدراية كما استقبل في مدرسة الفتاة التونسية واستدعاه الشيخ " الشاذلي بن القاضي" مدير المدارس النظامية الزيتونية وكانت المأدبة علمية حضرها نخبة من أهل العلم والرأي ومن بينهم "المختار بن محمود " والعلامة الشيخ "محمد المستيري"

119- المصدر نفسه.

120- الفضيل الورتلاني ، الجزائر الثائرة .دار الهدى عين مليلة ، الجزائر ، ص.367.

121- عمر بن قينة ، رسالة دكتوراه ،مرجع سبق ذكره ، ص.348.

122- البصائر ، سلسلة 2، العدد44، الصادر بتاريخ 26 جويلية 1948 ،ص.2.

"ومحمد الهادي بن القاضي" و"عبد الرحمان بن شيبان" " كما زار المعاهد العلمية التابعة للجامعة الزيتونة فاقتبل بها...وانتهى به المطاف إلى العتاب الملكية، فحظي بالقبول لدى جلالة ملكها المعظم صاحب العرش التونسي سيدنا ومولانا محمد الأمين باشا باي" <sup>123</sup>.

كما ألقى محاضرة بالخلدونية وكان موضوعها "الحياة الدينية بالجزائر" وحضرها نخبة من أهل العلم والفضل والدراية يتقدمهم ممثل شيخ الجامعة الزيتونة...ونخبة من السادة المدرسين والأدباء والكتاب ونخبة من الشباب الجزائري...وكذلك رجال الصحافة" <sup>124</sup> وكانت هذه الرحلة سببا في امتزاج ثقافة البلدين، كما مثل الثقافة الجزائرية أحسن تمثيل كيف لا وهو " أحد أبطال قادة الفكر والمعرفة بالشمال الإفريقي" <sup>125</sup> وبعد المحاضرة التي ألقاها الشيخ "العربي التبسي" عقد ندوة صحفية "لإنارة الرأي العام التونسي فيما يتعلق بالحالة في الجزائر وأعمال جمعية العلماء بها" <sup>126</sup>.

ومن هنا نستشف أن رحلة الشيخ العلامة "العربي التبسي" كانت ثقافية علمية من بدايتها إلى نهايتها حرص فيها على التبادل الثقافي والتنوع العلمي بين الأقطار العربية والإسلامية.

وإذا تكلمنا عن الرحلة الدينية الاجتماعية فيمكننا تصنيف معظم رحلات أعضاء جمعية العلماء المسلمين في هذا الإطار، حيث كانت غايتها الأولى هي تنوير العقول وذلك بنشر مبادئ الإسلام الصحيحة، والقضاء على المفاهيم الخاطئة التي تبناها الشعب الجزائري بمعظم طبقاته، بفعل طول حقبة الاستعمار وبفعل ما نشره بعض شيوخ الطرق الصوفية جهلا وتشويها لمبادئ الإسلام فصح علماء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين العقيدة ونقحوا الأفكار، حيث كانت تقوم بهذه المهمة جماعات وأفراد "وذلك بإحياء فريضة الوعظ والإرشاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في المساجد والنوادي والاجتماعات الخاصة والعامة، وبتث الوعي الاجتماعي في كل طبقات الشعب الجزائري" <sup>127</sup> وفي هذا الإطار يمكننا ان نتحدث عن الرحلة التي قام بها الشيخ "محمد خير الدين" إلى غيليزان وهو "شخصية بارزة من رجال العلم الذين قاوموا الجهل والاستعباد والبدع والضلال" <sup>128</sup> كما انه أمين مال جمعية العلماء المسلمين

<sup>123</sup> - المصدر نفسه.

<sup>124</sup> - المصدر نفسه.

<sup>125</sup> - المصدر نفسه.

<sup>126</sup> - المصدر نفسه، ص.3.

<sup>127</sup> - د. أحمد توفيق المدني، مرجع سبق ذكره، ص.21.

<sup>128</sup> - البصائر، سلسلة 2، العدد 44، الصادر بتاريخ 20 رمضان 1367 هـ (26 جويلية 1948م)، ص.7.

الجزائريين "لتنظيم الشعب وإلقاء دروس الوعظ والإرشاد إلى العموم"<sup>129</sup> فنزل بالمحطة الوهرانية واستقبله ومرافقه "عبد الحميد بن باديس" جمع غفير وفي الطليعة رجال الإصلاح الذين يمثلون جمعية العلماء المسلمين هناك، كما "اجتمع بأعضاء الجمعية خصيصا وتعيين وقت إلقاء درس للعموم بعد صلاة العشاء"<sup>130</sup> وكان الموضوع الذي تناوله في ذلك المساء عنوانه "النصيحة".  
وختم رحلته تلك "باجتماع مع أعضاء شعبة جمعية العلماء هناك وألقى بينهم درسا مفيدا ، وأطلعهم على حقائق إسلامية كانوا يجهلونها ، وأوصاهم بالحق والصبر والجد في عمل البر"<sup>131</sup>.

ويمكن أن نضيف في هذا المجال رحلات الشيخ "عبد الحميد بن باديس" إلى الجهة الشرقية من الوطن التي شملت عدة مدن منها (عزابة) ، (سكيكدة) ، (عين مليلة) ، (عين البيضاء) ، (العلمة) ، (سيدي مزغيش) ، (مجاز الدشيش) ، (أم البواقي) حيث ذكر في بدايتها الهدف الديني والاجتماعي في الاتصال بالناس "ما كنت أدعوهم في جميع مجالسي إلا لتوحيد الله والتفقه في الدين والرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله ورفع الأمية والجد في أسباب الحياة من فلاحه وتجارة وصناعة، وإلى اعتبار الأخوة الإسلامية فوق كل مذهب وطريقة وجنس وبلد ، وإلى حسن المعاملة والبعد عن الظلم والخيانة مع المسلم وغير المسلم"<sup>132</sup>

### 9.3- الرحلة السياحية الاستطلاعية:

إن هذا النوع من الرحلة غالبا ما يكون برغبة من الرحالة وليس بدافع من جهات تنظيمية معينة ، فهناك من الرحالة من يغمره حب الاطلاع والرغبة في السياحة ومعرفة المسالك والممالك ، بدافع التمتع والتسلية فإنه يمكن اعتبار رحلة "حمزة بوكوشة" إلى المغرب الأقصى التي كانت تحت عنوان " أربعون يوما في المغرب الأقصى" من نصوص الرحلة التي يغلب عليها الطابع الاستطلاعي ، فهو يذكر في البداية أن الهدف من الرحلة تجاري وحب اطلاع "حدث بي مآرب تجارية وحب اطلاع لزيارة هذه البلاد التي هي جزء من بلادنا"<sup>133</sup> وأول مدينة

129 - المصدر نفسه.

130 - المصدر نفسه.

131 - المصدر نفسه ، ص. 8.

132 - عمار طالبي ، ابن باديس حياته وآثاره، ج4، دار مكتبة الشركة الجزائرية للكتاب ، ط1 ، الجزائر ، 1388هـ ، ص. 297.

133 - البصائر ، سلسلة 2 ، العدد 33 ، الصادر بتاريخ 2 جمادى الثانية 1367هـ (12 أبريل 1948) ، ص. 3.

أقام بها هي مدينة فاس حيث التقى بالأستاذ " إبراهيم الكتاني " وفضله تقصيت ما بالمدينة من مؤسسات علمية وآثار تاريخية" <sup>134</sup>.

وبعد أن اطلع على حالة التعليم في الغرب الأقصى ،وأعجب بما فيها من تنظيم وانضباط زار ضريح العلامة "التاودي" فرغم أن رحلته كانت استطلاعية سياحية إلا أنه لم يفوت الفرصة للتزود منها ومعرفة أخبار الطلبة الجزائريين الموجودين بمدينة فاس وفرح كثيرا بمعاملة المغاربة للجزائريين ،حيث كانوا محل تقدير وتبجيل " وقد أزلت ما علق بالأذهان من الصور المفزعة التي كانت تشحن من الجزائر إلى المغرب" <sup>135</sup> ،وبعد هذه الجولة العلمية ،ذهب إلى الدار البيضاء المعروفة بالتجارة والاستيراد والتصدير "وهي مركز تجاري عظيم لا نظير له بالشمال الإفريقي" <sup>136</sup> .

وهكذا تنتهي رحلة "حمزة بوكوشة" التي قادته إلى المغرب بالأقصى وقد جنى منها الكثير من الفوائد العلمية والتجارية والسياحية.

ويمكن أن ندرج ضمن هذه الرحلة ،الرحلة الكشفية حتى وإن تميزت بطابعها التنظيمي الخاص بعض الشيء فإن عنصر الرحلة السياحية والاستطلاعية غالبا ما يتلازمان مع بروز جانب في موقع والآخر في غيره حيث يبدو من الصعب في معظم هذه الرحلات الفصل التام نهائيا بين سياحة خالصة واستطلاعية بحتة" <sup>137</sup> ،وتندرج ضمن هذا النوع من الرحلات "رحلة محمد المنصوري الغسيري" التي كانت الوجهة فيها إلى القاهرة بدعوة من الكشافة المصرية فيقول "الغسيري" في ذلك : "وها قد اجتمعنا بعون من الله فهذه الكشافة الإسلامية تعقد رحلة إلى مصر تدوم نصف شهر بالقطر المصري تحت قيادة الأساتذة : "الطاهر التيجيني" و"محمود بن محمود" و"الغسيري" جاءت بدعوة من الكشافة المصرية بمناسبة حفلات التحرير" <sup>138</sup> ،وسنتطرق إلى هذه الرحلة بشيء من التفصيل والدراسة في الفصل الأخير حيث هي موضوع الدراسة.

134 - المصدر نفسه.

135 - المصدر نفسه.

136 - المصدر نفسه.

137 - عمر بن قينة ، رسالة دكتوراه ، مرجع سبق ذكره ، ص. 358.

138 - البصائر ،سلسلة 2، العدد 240، الصادر بتاريخ 2 محرم 1373 هـ (11 سبتمبر 1953 م) ،ص.8.